بأصوله التى وضعها الله فى إطار العدالة . وحين يكون للرجل امرأتان مثل سيدنا معاذ بن جبل ، فكل امرأة لها حق فى البيتوتة ، ليلة لزوجة وليلة لأخرى مثلا ، وكان ـ رضى الله عنه ـ لا يتوضأ عند واحدة فى ليلة الأخرى مع أن الوضوء قربة لله . والأعجب من ذلك عندما ماتت الزوجتان فى الطاعون ، أمر بدفن الاثنتين فى قبر واحد .

والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الخلق وأمر بالعدالة فى المستطاع ، وعلى الرجل أن يعدل زَمَناً ، ويعدل نفقة ، ويعدل ابتسامة ، ويعدل مؤانسة ومواساة ، والرجل فى كل ذلك يستطيع ، لكنه لا يستطيع أن يعدل فى ميل القلب ، وهو أمر مكتوم ، لذلك قال الحق :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾

أى أن العدل الحبّى مستحيل . وقال النبى عليه الصلاة والسلام : ( اللهم هذا قَسْمِى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك ) ـ يعنى القلب ـ[1] .

إذن ففيه فرق بين ميل القلب وهو مواجيد نفسية والنزوع النفسى . والعملية الوجدانية لا يقدر عليها أحد ، ولا يوجد تقنين يقول للرجل : « أحب فلانة » . . إلا إذا أراد الحب العقلى ، أما الحب العاطفى فلا . والذى يأمر به الشرع هو أن يحب الإنسان بالعقل ، أما حب العاطفة فلا تقنين له أبداً .

وقد يحب الإنسان الدواء المر بعقله لا بعاطفته ويسرّ الإنسان من صديق جاء بهذا

١ ـ رواه أحمد وأبو داود والدارمى .

الدواء من الخارج ؛ لأن الدواء سيشفيه بإذن الله .

إذن « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل » ، ما هو كل الميل ؟ ويوضحه ـ سبحانه ـ بقوله : « فتذروها كالمعلقة » وهى المرأة التى لا هى أيّم أى لا زوج لها فتطلب الزواج ، ولا هى متزوجة فتستمتع بوجود زوج ، ويحجزها الرجل دون أن يمارس مسئوليته عنها ، فيوضح الحق : أنا لا أطلب منك أن تميل بقلبك هنا ، أو هناك ؛ لأن هذه المسألة ليست ملكاً لك ، ولكنى أريد العدالة فى الموضوعات الأخرى ؛ كأن تسوّى فى البيتوتة والنفقة ، ومطلوبات أولادك ، وأن تعدل بين أزواجك فى المؤانسة . أما المعنى الآخر وهو ميل القلب فأنا لا أكلف به .

وسبحانه حين يشرّع لخلقه أعلم بمن خلق ، وقد جعل لكل مخلوق منا عواطف ينشأ عنها ميل ، وجعل له غرائز ، وخيارات فى الانفعالات ولو أراد سبحانه أن يحجر على الميل لما خلقه ، ولكنه ـ جل وعلا ـ يطلق الميول لتتم بالميول مصالح الكون مجتمعة ، فحين يمنح القلب أن يحب ، يعلم سبحانه أن عمارة الكون تنشأ بالحب . فلو لم يحب العالم أن يكتشف أسرار الله فى خلقه لما حمل نفسه متاعب البحث والاطلاع والتجربة ، وكل ما يترتب على ذلك من مشقات .

ولو لم يحب الإنسان إتقان عمله لما رأيت عملاً مجوَّداً . ولو لم يحب الإنسان أولاده لما تحمل المشقة فى تبعات تربيتهم . إذن فالحب له مهمة . والله لا يريد منا أن نمنع الحب . لكنه يريد منا أن نعلى مطالب الحب ، فنجعل للحب مجالاته المشروعة لا أن ينطلق الحب فى الكون ليعربد فى أعراض الناس .

إنك حين تجعل الحب موجهاً إلى خير لا يأتيك منه أو للناس شرّ . وعندما ننظر ـ مثلا ـ إلى دافع وغريزة حب الاستطلاع نجد أن الله قد خلقها فى الإنسان ليصعد ابتكاراته المسعدة فى الحياة . ولو لم توجد غرائز حب الاستطلاع لما تعب المكتشف فى أن يبتكر شيئاً أو يخترعه ويكتشفه حتى يريحنا نحن البشر ، ولما فكر الإنسان فى أن يستعمل البخار ليحمل عن الناس مشقات السفر ومشقات حمل الثقيل. إن هذا الاكتشاف أراحنا باختراع الباخرة أو القطار .

ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعلى غريزة حب الاستطلاع فينبغى أن نجعلها

فى مجالها المشروع فلا نجعلها تجسساً على عورات الناس مثلاً ، وكذلك جعل الله غريزة حب المال فى الإنسان ؛ لأن حب المال يدفع الإنسان إلى أن يعمل ، ويستفيد الناس من عمله أراد أو لم يرد . كذلك غريزة الجنس جعلها الله فى الإنسان ولها سعار ليحفظ بها النوع الإنسانى . إنّه سبحانه لا يريد منها أن تنطلق انطلاقاً يلغ فى أعراض الناس . إذن فالغرائز خلقها الله لمهمة . والشرائع جاءت لتحفظ الغرائز فى مجال مهمتها وتمنع عنها انطلاقاتها المسعورة فى غير المجالات التى حددها لها المنهج .

إذن فالميل أمر فطرى فى النفس البشرية وقد أوضح الحق سبحانه : أنا خلقت الميل ليخدم فى عمارة الكون ، ولكن أريد منكم أن تصعدوا الهوى وتعلوه فى هذا الميل ، وحين تعددون الزوجات . لا أطلب منكم البعد عن كل الميل ؛ لأن ذلك أمر لا يحكمه منطق عقلى ، ولكن أحب أن تحددوا الميل وتجعلوه فى مجاله القلبى فقط ، ولا يصح أن يتعدى الميل عند أحدكم إلى ميله القالبى .

أحب أيها العبد المؤمن من شئت وأبغض من شئت ، لكن لا تجعل هذا الحب يقود قالبك لتعطى من تحب خير غيره ظلماً ، وأبغض أيها العبد من شئت ، فلا يستطيع مقنن أن يقنن للقلب أن يبغض أو يحب ، لكن بغضك لا تعديه عن قلبك إلى جوارحك لتظلم من تبغض .

ولنا الأسوة فى سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ حينما مرّ عليه قاتل أخيه ، ولفت نظره جليس له : هذا قاتل أخيك .

هنا قال عمر ـ رضى الله عنه ـ : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟ كأن إسلام هذا القاتل قد أنهى المسألة عند عمر ـ رضى الله عنه ـ . وعندما جاء هذا القاتل لمجلس عمر ، قال له سيدنا عمر : إذا أقبلت علىّ إلوِ وجهك عنى ، لأن قلبى لا يرتاح لك . فسأل الرجل : أو عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ . قال عمر : لا .

قال الرجل : إنما يبكى على الحب النساء . هذا عمر وهو الخليفة ، والرجل من الرعية . لكن عمر الخليفة يخاف من الظلم ، ويملك هذا الشخص وهو تحت إمرة وحكم الخليفة عمر ـ رضى الله عنه ـ قدرة الرفض لمشاعر الحب أو الكراهية ما دامت لا تمنع حقوقه كمواطن .

إن الحق سبحانه وتعالى حينما يخلق ميول القلوب يضع أيضاً القاعدة : إياك أيها المؤمن أن تعدى ميل القلب إلى القالب ، وليكن ميل القلب كما تحب . كذلك إن أنت أيها المؤمن تزوجت وبعد ذلك تزوجت امرأة أخرى فالمنهج لا يطلب منك أن تعدل العدل المطلق الذى ينصب على شيء لا تملكه وهو ميل قلبك . ولكن المنهج يضع لك القواعد التى يسير عليها سلوك قالبك . وعليك أن تعدل فى قسمة الزمن والنفقة والكسوة وبشاشة الوجه وحسن الحديث . ولا تخضع ذلك لميل القلب ، وبعد ذلك أنت وقلبك أحرار .

ونرى بعضا من الذين يحبون أن يظهروا بين الناس كفاهمين للقرآن أو دعاة تجديد ، يركبون الموجة ضد التعدد . ونقول : قبل أن يركب الواحد منكم الموجة ضد التعدد ، ويقف منه موقف الرافض له مدعيا أنه يفهم النص القرآنى ، إنّنا نقول له : عليك أن تبحث عن أسباب السخط على التعدد ، هى ليست من التعدد فى ذاته ، ولكنها تأتى من أن المسلم يأخذ إباحة الله للتعدد . ولا يأخذ حكم الله فى العدالة . فلو أن المسلم أخذ بالعدالة مع التعدد لما وجدنا مثل هذه الأزمة . ولذلك يقول الواحد من هؤلاء : إن الحق سبحانه وتعالى أمر بلزوم واحدة والاقتصار عليها عند خوف ترك العدل فى التعدد فقال :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾

(من الآية ٣ سورة النساء)

ثم جاء فى آية أخرى وقال : «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم» .

ونقول : إن الواحد منكم إن أراد أن يفهم القرآن ، فعليه أن يعلم أن الحق سبحانه لم يقف فى هذه الآية عند قوله : (ولو حرصتم) إنما فرع على عدم الاستطاعة فى العدل فقال : «فلا تميلو كل الميل» إنه ـ سبحانه ـ فرع على عدم الاستطاعة فى العدل فأمر بعدم الميل كل الميل . وتلك حكمة المشرع الأول الذى يعلم مَن خلق وكيف خلق . ولو أن الحق لم يفرِّع على «ولن تستطيعوا» لجاز لهؤلاء الذين يركبون الموجة المطالبة بعدم التعدد أن يقولوا ما يقولون ؛ لذلك نقول لهم : انتبهوا إلى أن الحق سبحانه أوضح : عدم استطاعتكم للعدل هو أمر أنا أعلمه ، ولذلك أطلب منكم ألا تميلوا كل الميل وذلك باستطاعتكم . ومعنى هذا أنه سبحانه قد أبقى الحكم ولم يسلبه .

« فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » . وفى هذا القول أمر بألا يترك الرجل زوجته الأولى كالمعلقة وهى المرأة التى لم يتحدد مصيرها ومسارها فى الحياة ، فلا هى بغير زوج فتتزوج ، ولا هى متزوجة فتأخذ قسمها وحظها من زوجها ، بل عليه أن يعطيها حظها فى البيتوتة والنفقة والملبس وحسن الاستقبال والبشاشة والمؤانسة والمواساة .

ويقول الحق من بعد ذلك : « وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً » .

وقوله : « تصلحوا » دليل على أنه كان هناك إفساد موجود والمطلوب أن نقوم بالبحث عن الأسباب التى جعلت الرجل يفسد فى علاقته الزوجية ليقضى عليها . وبعد ذلك على المسلم أن يستأنف تقوى جديدة فى المعاملة على ضوء ما شرع الله . وحين يصلح المسلم ما أفسد من جعل الزوجة الأولى كالمعلقة ويعطيها حقها فى البيتوتة والنفقة ورعاية أولادها والإقبال عليها وعلى الأولاد بصورة طيبة فالله سبحانه يغفر ويرحم ، ولا يصلح المسلم ما أفسد إلا وهو ينوى ألا يستأنف عملاً إلا إذا كان على منهج التقى ، ويجد الحق غفوراً لما سبق ورحيماً به .

وإن لم يستطع الرجل هذا ، ولا قبلت المرأة أن تتنازل عن شىء من قسمها ترضية له تكن التفرقة ـ هنا ـ أمراً واجباً . فليس من المعقول أن نحكم الحياة الزوجية والحياة الأسرية بسلاسل من حديد ، ولا يمكن أن نربط الزوجين بعدم الافتراق إن كانت القلوب متنافرة وكذلك لا نأمن على المرأة أن تعيش هكذا .

إن الذى يقول : لا يصح أن نفرق بين الزوجين ، نقول له : كيف تريد أن تحكم الحياة الزوجية بالسلاسل ؟ والزواج صلة مبناها السكن والمودة والرحمة ، فإن انعدمت هذه العناصر فكيف يستمر الزواج وكيف ترغم زوجاً على أن يعايش زوجة لا يحبها ولا يقبلها وترغم زوجة أن تعيش مع زوج لا تحبه ؟ إن التفريق بينهما فى مثل هذه الحالة قد يكون وسيلة أرادها الله سبحانه وتعالى ليرزق الزوج خيراً منها ويرزق الزوجة خيراً منه .

وكثيراً ما شهدنا هذا فى واقع الحياة ، وعاش الزوج مع الزوجة الجديدة سعيداً ، وعاشت الزوجة مع الزوج الجديد سعيدة ، أما الذين تشدقوا بمسألة عدم التفريق مع

استحالة الحياة الزوجية وهاجموا الإسلام فى هذا المجال . فهم يرددون ما كان عند أهل الغرب : من أن الزواج لا انفصال فيه .

إننا نرى العالم كله الآن بكل النصارى واليهود وغيرهم من الملل والنِّحَل يلجأون إلى الطلاق ؛ لأن الأحداث اضطرتهم إلى أن يشرعوا الطلاق ، فكأنهم ذهبوا إلى الإسلام لا على أنه إسلام ، ولكن على أنه الحل الوحيد لمشكلاتهم . فإذا ثبت أن الذين يهاجمون جزئية من جزئيات الدين يضطرون إليها تحت ضغط الأحداث فيجب أن ننبههم إلى عدم التسرع والعجلة والحكم على قضايا الدين الإسلامى بأنها غير صالحة ؛ لأن الحق أرغم من لم يكن مسلماً على أن ينفذ قضية إسلامية . فهو القائل :

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾

وسبحانه عنده الفضل الواسع ، وهو القادر أن يرزق الزوج زوجة صالحة تشبع كل مطالبه ، ويرزق الزوجة زوجاً آخر يشبع كل احتياجاتها ويقبل دمامتها لو كانت دميمة ، ويجعله الله صاحب عيون ترى نواحي الخير والجمال فيها . وقد نجد رجلاً قد عضته الأحداث بجمال امرأة كان متزوجاً بها وخبلته وجعلت أفكاره مشوشة مضطربة وبعد ذلك يرزقه الله بمن تشتاق إليه ، بامرأة أمينة عليه ، ويطمئن عندما يغترب عنها فى عمله . ولا تملأ الهواجس صدره ؛ لأن قلبه قد امتلأ ثقة بها وإن كانت قليلة الحظ من الجمال .

« وإن يتفرقا يغن الله كلًّا من سعته وكان الله واسعاً حكيماً » فإياك أن تظن بأن الله ليس عنده ما يريح كل إنسان . فسبحانه عنده كل ما يريح كل الناس . وصيدلية منهج الله مليئة بالأدوية ، وبعض الخلق لا يفقهون فى استخدام هذه الأدوية لعلاج أمراضهم .

ومن الحكمة أنه سبحانه لا يرغم اثنين على أن يعيشا معاً وهما كارهان ؛ لأنهما افتقدا المودة والرحمة فيما بينهما .

ومن بعد ذلك يعقب الحق بآية :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ
وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ
أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾

وسبحانه هو الذى يُرضى الزوج إن افترق عن زوجته ، ويرضى الزوجة إن افترقت عن زوجها ؛ لأنه ـ جل وعلا ـ خلق الدنيا التى لن تضيق بمطلوب الرجل أو المرأة بعد الانفصال بالطلاق ، فله ملك السموات والأرض وهو القادر على أن يرزق الرجل امرأة هى خير ممن فارق،ويرزق المرأة رجلا هو خير ممن فارقت ، فلا شىء خرج عن ملك الله وهو الواسع العطاء .

إننا كثيرا ما نجد رجلاً كان يتزوج امرأة ولا تلد ويشاع عنها أنها عقيم ، ويذهب الإثنان إلى معامل التحليل ، ويقال أحياناً : المرأة هى السبب فى عدم النسل ، أو : الرجل هو السبب فى عدم النسل ، ويفترق الاثنان ويتزوج كل منهما بآخر ، فتلد المرأة من الزوج الجديد ، ويولد للرجل من الزوجة الجديدة ؛ لأن المسألة كلها مرادات الله ، وليست أمور الحياة مجرد اكتمال أسباب تفرض على الله بل هو المسبب دائماً فهو القائل :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ
لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝ ﴾

( سورة الشورى )

كم صورة إذن عندنا لمثل هذا الموقف ؟. يهب لمن يشاء إناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً ، هي بأربعة مقادير تجرى على الرجل والمرأة . وعندما يهب الله المؤمنَ الإناثَ يكون سعيداً . وكذلك عندما يهبه الذكور ، وعندما يهب الله لأسرة أبناء من الذكور فقط . فالزوجة تحن أن يكون لها ابنة . وإن وهب الحق لأسرة ذرِّية مِن الإناث فقط ، فالمرأة والرجل يتمنيان الابن ، وإن أعطاهما الله الذكور والإناث نجدهما قد وصلا إلى الحالة التي تقر بها العيون عادة . والحالة التي تقر بها العيون عادة مؤخرة .

إن الحالة التي تزهد النفس فيها فالحق يقربها إلى أوليات الهبة ، فقال أولاً : « يخلق ما يشاء » ، وبعد ذلك : « يهب لمن يشاء إناثا » ثم ذكر عطاء الذكور ، ثم يأتي بالحالة التي يكون العطاء فيها في القمة : « أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً » .

وأخيراً يأتي بالقَدَر الرابع الذي يجريه على بعض خلقه وهو : « ويجعل من يشاء عقيماً » .

ولماذا يُسر الإنسان بقدرِ الله حينما يهبه الله الإناث أو الذكور ، ويزداد السرور بقدر الله حينما يهبه ـ سبحانه ـ الذكور والإناث . ولماذا لاَ تُسر إذن أيها الإنسان بقدر الله حينما يجعلك عقيماً ؟ أتعتقد أنك تأخذ القدر الذي تهواه ، وترد القدر الذي ليس على هواك ؟ إن المواقف الأربعة هي قَدَر من الله .

ولو نظر الإنسان إلى كل أمر من الأمور الأربعة لرضى بها .

إنّه سبحانه يخلق ما يشاء ويجعل من يشاء عقيماً ، إن قالها الإنسان باستقبال مطمئن لقدر الله فالله قد يقر عينه كما أقر عيون الآخرين بالإناث أو بالذكور ، أو بالذكور والإناث معاً . وأقسم لكم لو أن إنساناً ـ أو زوجين ـ أخذا قدر الله في العقم كما أخذاه في غيره من المواقف السابقة برضا إلا رزقهم الله ، لا أقول ببنين وبنات يرهقونهم في الحمل والتربية وغيرها ، بل يرزقهم بأناس يخدمونهم ، وقد ربَّاهم

غيرهم ، والذى يجعل الأزواج المفتقدين للإنجاب يعيشون فى ضيق ، هو أنهم فى حياتهم ساخطون على قدر الله ـ والعياذ بالله ـ فيجعل الله حياتهم سخطاً . فهو القائل فى حديثه القدسى :

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يقول الله تعالى : ( أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرّب إلىّ بشبر تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرّب إلىّ ذراعا ، تقربت إليه باعا وإن أتانى يمشى ، أتيته هرولة )[1] .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يقول : « ولله ما فى السموات وما فى الأرض » فإياك أن تقول كون الله سيضيق عن رزق الرجل المفارق لزوجته أو المرأة المفارقة لزوجها من عطاء الله لهما فما دام سبحانه قد قرر الفراق كحل لعدم توافق فى حياتهما معاً .. فهو سبحانه سيعطى عن سعة للزوج وعن سعة للزوجة . وعليك أيها المسلم أن تطيع منهج الحق كما أطاع كل ما فى السموات وكل ما فى الأرض ، ثم اسأل نفسك هذا السؤال : مَن يقضى مصالحك كلها ؟ .

إنه الحق سبحانه الذى سخر أشياء ليست فى طوق قدرتك ، أأرغمت الشمس أن تشرق لك بالضوء والحرارة ؟ . أأرغمت الماء أن يتبخر وينزل مطراً نقيًّا ؟

أأرغمت الريح أن تهب ؟ أضربت الأرض لتقول لها : غذّى ما أضعه فيك من بذر بالعناصر اللازمة له والمحتاج إليها لينتج النبات ؟ . كل هذا ليس فى طوق إرادتك بل هو مسخر لك بأمر الله . وإن أردت الاستقامة فى أمرك ، لكنت كالمسخر فيما جعل الله لك فيه اختيار ولقلت لله : أنا أحب منهجك يا رب وما يطلبه منى سأنفذه قدر استطاعتى . فتكون بقلبك وقالبك مع أوامر المنهج ونواهيه ، فينسجم ويتوافق الكون معك كما انسجم الكون المسخر المقهور المسير .

« ولله ما فى السموات وما فى الأرض » ، وهذا تذكير بأن كل شىء مملوك لله وفى

(١) رواه البخارى فى كتاب التوحيد ، وأخرجه مسلم فى صحيحه بثلاث طرق .

طاعته ، فلا تشذ أيها الخليفة لله عن الكون ، فكل ما فيه يخدمك . ولتسأل نفسك : أتعيش فى ضوء منهج الله أم لا ؟ لأن الكون قد انسجم وهو مسخر لله ، ولم يحدث أى خلل فى القوانين الكلية ، وسبحانه القائل :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ ﴾

( سورة الرحمن )

وهذا إيضاح من الحق تبارك وتعالى : إن أردتم أن تستقيم لكم أموركم الاختيارية فانظروا إلى الكون ، فالأشياء المسخرة لا يحدث منها خلل على الإطلاق ، ولكن الخلل إنما يأتى من اختيارات الإنسان لِغير منهج الله .

« ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » يوضح سبحانه : لقد وصينا الذين أنزلنا إليهم المنهج من قبلكم ، ووصيناكم أنتم أهل الأمة الخاتمة أن التزموا المنهج بالأوامر والنواهى ؛ لتجعلوا اختياراتكم خاضعة لمرادات الله منكم حتى تكونوا منسجمين كالكون الذى تعيشون فيه ، ويصبح كل شىء يسير منتظماً فى حياتكم ، ولم يقل الحق هذه القضية للمسلمين فقط لكنها قضية كونية عامة جاء بها كل رسول : « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » .

ولم يقل : شرعنا للذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ولم يقل : فرضنا ، إنما قال : « ولقد وصينا » . وكلمة « وصية » تشعر المتلقى لها بحب الموصى للموصَى . « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » وتقوى الله تعنى أن نفعل أوامر الله وأن نتجنب نواهيه ؛ لنحكم حركة اختياراتنا بمنهج ربنا ، فإن حكمنا حركة اختياراتنا بمنهج الله صرنا مع الكون كأننا مسخرون لقضايا المصلحة والخير .

ومن بعد ذلك يقول الحق : « وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنياً حميداً » ومقابل الكفر هو الإيمان ، ومن يخرج عن الإيمان فالله غنى عنه ، فلا تعتقدوا أيها المخاطبون بمنهج الله أننى أستميلكم إلى الإيمان لأنى فى حاجة إلى إيمانكم ، لا ، لكنى أريد منكم فقط أن تكونوا مجتمعاً سليماً ، مجتمعاً سعيداً ، وإن تكفروا فسيظل الملك كله لله ، وستظل حتى ـ ولو كنت متمرداً ـ فى قبضة

مرادات ربك . فلن تتحكم فى مولد أو فى ممات أو فى مقدورات . فالكون ثابت وسليم . وجاء القرآن باللفت إلى انتظام الكون يقول الحق :

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾

( سورة ق )

وفى لحظة من اللحظات يأمر الحق كوناً من كونه فيختل نظامه فترى الأرض المستقرة وقد تزلزلت ، والتى قال عنها سبحانه :

﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾

( من الآية ١٥ سورة النحل )

وسبحانه هو الذى يملكها فيجعلها تضطرب ويُحدث فى موقع منها زلزالاً ، فتندثر المبانى التى عليه حتى تفهم أن الدنيا ليست محكومة حكماً آلياً ، بل محكومة بالأسباب ، وزمامها مازال فى قيومية المسبب ، ونلتفت مرة إلى بعض من الزوابع من التراب وهى تغلق المجال الجوى كله بحيث لا يستطيع واحد أن ينظر من خلاله ، وهذا لفت من الله لنا يوضح : لقد صنعت هذه القوانين بقدرتى ، ولن تخرج هذه القوانين عن طلاقة قدرتى .

ونرى بلاداً تحيا على أمطار دائمة تغذى الأرض ، فنجد الخضرة تكسو الجبال ولا نجد شبراً واحداً دون خصوبة أو خضرة أو شجر ، وقد يظن ظان أن هذه المسألة أمر آلى ، ويأتى الحق ليجرى على هذه المنطقة قدر الجفاف فيمنع المطر وتصير الأرض الخصبة إلى جدب ، وتنفق وتهلك الماشية ويموت البشر عطشاً ، وذلك ليلفتنا الحق إلى أن المسألة غير آلية ولكنها مرادات مُريد .

وفى موقع آخر من الكرة الأرضية نجد أرضاً منبسطة هادئة يعلوها جبل جميل ،

وفجأة تتحول قمة الجبل إلى فوهة بركان تلقى الحمم وتقذف بالنّار وتجرى الناس لتنقذ نفسها ، ولذلك علينا أن نعرف أن عقل العاقل إنما يتجلى فى أن يختار مراداته بما يتفق مع مرادات الله ، وعلى سبيل المثال . . لم يؤت العقل البشرى القدرة الذاتية على التنبؤ بالزلازل ، لكن الحمار يملك هذه القدرة .

« وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنياً حميداً » وصدر الآية بالمقولة نفسها : « ولله ما فى السموات وما فى الأرض » وذلك لتثبيت وتأكيد ضرورة الطاعة لمنهج الله حتى ينسجم الإنسان مع الكون . وتجىء المقولة مرة ثانية فى الآية نفسها ليثبت الحق أنه غنىّ ، ولا تقل إن المقولة تكررت أكثر من مرة فى الآية الواحدة ، ولكن قل : إن الحق جاء بها فى صدر الآية لتثبت معنى ، وجاءت فى ذيل الآية لتثبت معنى آخر ، فسبحانه هو الغنى عن العباد :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

( من الآية ٢٩ سورة الكهف )

ومجىء « ولله ما فى السموات وما فى الأرض » لإثبات حيثية أن يطيع العبد خالقه . ومجىء « لله ما فى السموات وما فى الأرض » فى ذيل الآية لإثبات حيثية غنى الله عن كل العباد . والمقولة نفسها تأتى فى الآية التالية حيث يقول سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ ﴾

ومجىء المقولة لثالث مرة لطمأنة الإنسان أن الله يضمن ويحفظ مقومات الحياة . فلن تتمرد الشمس يوماً ولا تشرق . أو يتمرد الهواء ولا يهب . أو تضن الأرض عليك بعناصرها ؛ لأن كل هذه الأمور مسخّرة بأمر الله الذى خلقك وقد خلقها وقدّر فيها قوتك .

ولذلك يوضح ربنا : أنا الوكيل الذى أكفلكم وأكفيكم وأغنيكم عن كل وكيل .

والوكيل هو الذى يقوم لك بمهامك وتجلس أنت مرتاح البال . والإنسان منا عندما يوكل عنه وكيلاً ليقوم ببعض الأعمال يحسّ بالسعادة على الرغم من أن هذا الوكيل الذى من البشر قد يخطىء أو يضطرب أو يخون أو يفقد حكمته أو يرتشى ، لكن الحق بكامل قدرته يطمئن العبد أنه الوكيل القادر ، فلتطمئن إلى أن مقومات وجودك ثابتة ؛ فسبحانه مالك الشمس فلن تخرج عن تسخيرها ، ومالك المياه ومالك الريح ومالك عناصر الأرض كلها . ومادام الله هو المليك فهو الحفيظ على كل هذه الأشياء . وهو نعم الوكيل ؛ لأنه وكيل قادر وليس له مصلحة .

وتعالوا نقرأ هذا الحديث :

فقد ورد أن أعرابيا جاء فأناخ راحلته ثم عقلها ثم صلى خلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أتى راحلته فأطلق عقالها ثم ركبها ثم نادى اللّهم ارحمنى ومحمداً ولا تشرك فى رحمتنا أحداً . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أتقولون هذا أضل أم بعيره ألم تسمعوا ما قال ؟» قالوا : بلى ، قال : « لقد حَظرت[1] رحمة واسعة . إن الله ـ عز وجل ـ خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنّها وإنسها وبهائمها وأخّر عنده تسعاً وتسعين رحمة أتقولون هو أضل أم بعيره »[2] .

هو إذن كفى بالله وكيلاً وهو نعم الوكيل ، وهو يطمئن عباده ويبين أنه ـ سبحانه ـ هو القيوم،وتعنى المبالغة فى القيام ، إذن كل شىء فى الكون يحتاج إلى قائم ؛ لذلك فهو قيوم . ويوضح الحق لكل إنسان : أنِ اجتهد فى العمل وبعد أن تتعب نم ملء جفونك،لأنى أنا الحق لا تأخذنى سنة ولا نوم . فهل هناك وكيل أفضل من هذا ؟ . « وكفى بالله وكيلاً » .

ثم يأتى الحق بحيثية أخرى تؤكد لنا أنه غنى عن العالمين ، فلا يكفى أن يقول : إنه غنى وإنه خلق كل ما فى السموات وما فى الأرض ، وإن كفرت أيها الإنسان فالذنب عليك ، وإن آمنت فالإيمان أمان لك ، وأوضح : إياكم أيها البشر أن تعتقدوا أنكم خُلِقْتم وشردتم وأصبحتم لا سلطان لله عليكم . لا . فالله سبحانه يقول :

(١) حظرت : منعت وحجرت .

(٢) رواه أحمد وأبو داود .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ ﴾

وبعض الفاقدين للبصيرة من الفلاسفة قالوا : صحيح أن الله قد خلقنا ولكنا خرجنا من دائرة نفوذه . لا ، بل سبحانه إن شاء لذهب بكم جميعاً وأتى بآخرين ، وما ذلك على الله بعزيز ، وهو القائل : « وكان الله على ذلك قديراً » .

حين نقرأ « كان » بجانب كلمة « الله » فهى لا تحمل معنى الزمن ؛ فالله قدير حتى قبل أن يوجد مقدور عليه ، فلم يكن قديراً فقط عندما خلق الإنسان ، بل بصفة القدرة خلق الإنسان ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ليس له أغيار ؛ لذلك يظل قديراً وموجودا فى كل لحظة ، وهو كان ولا يزال .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾

ومادام الرسل قد أبلغوا الإنسان أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة فلمَ الغفلة ؟ ولمَ لا تأخذ الزيادة ؟ ، ولماذا نذهب إلى صفقة الدنيا فقط مادام الحق يملك ثواب الدنيا من صحة ومال وكل شيء ، وإن اجتهد الإنسان فى الأسباب يأخذ نتيجة أسبابه . فالحق يقول :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

( سورة الشورى )